مقال للأب متى المسكين

«لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلَا حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ»[١]

(رؤ ٣: ١٧)

⊙⊙⊙

«وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ كَنِيسَةِ اللاَّوُدِكِيِّينَ: هذَا يَقُولُهُ الأَمِينُ، الشَّاهِدُ الأَمِينُ الصَّادِقُ، بَدَاءَةُ خَلِيقَةِ اللهِ: أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، أَنَّكَ لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا. لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا! هكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي. لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلاَ حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْتَ الشَّقِيُّ وَالْبَئِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَعُرْيَانٌ. أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لِكَيْ تَسْتَغْنِيَ، وَثِيَابًا بِيضًا لِكَيْ تَلْبَسَ، فَلاَ يَظْهَرُ خِزْيُ عُرْيَتِكَ. وَكَحِّلْ عَيْنَيْكَ بِكُحْل لِكَيْ تُبْصِرَ. إِنِّي كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ أُوَبِّخُهُ وَأُؤَدِّبُهُ. فَكُنْ غَيُورًا وَتُبْ. هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَجْلِسَ مَعِي فِي عَرْشِي، كَمَا غَلَبْتُ أَنَا أَيْضًا وَجَلَسْتُ مَعَ أَبِي فِي عَرْشِهِ. مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ». (رؤ ٣: ١٤-٢٢).

في الحقيقة، يا أحبائي، إن هذه الرسائل بحسب اعتقادي الموجَّهة إلى السبع كنائس هي في الواقع موجَّهة إلى السبعة عصور التي تمر بها الكنيسة. الذي يقرأ ويدرس التاريخ جيدًا سوف يتأكد أن الكنيسة الحالية هي كنيسة آخر الزمان. تلك الكنيسة التي قال عنها الكتاب: «لِكَثْرَةِ الإِثْمِ تَبْرُدُ مَحَبَّةُ الْكَثِيرِينَ» (مت ٢٤: ١٢). أليس هذا ما نراه حاليًا في كنيستنا من ضعف المحبة وزيادة الإثم؟

إننا بمجرد نظرة بسيطة لكنيسة العصور الأولى سوف نتأكَّد تمامًا أننا في حياتنا وسلوكنا لسنا على مستوى الحب الذي كان لآبائنا الأوائل، والذي كانوا يحيونه أيامهم. سوف نكتشف أننا ناقصون جدًّا، ليس لنا محبة ولا حرارة ولا قوة الروح القدس الذي كان فيهم.

---

(١) عظة لم يسبق نشرها للأب متى المسكين، ألقاها على الرهبان يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٥.

طبعًا تعلمون أن كنيسة الرسل الأولى كانت من أصل يهودي، والذين آمنوا بالمسيح كانوا يهودًا. وأنتم تعلمون الطبع اليهودي المُحِب جدًّا للمال، والذي لا يُفرِّط أبدًا في ميراث آبائه. تصوَّروا هذا اليهودي الذي آمن بالمسيح يبيع كل ما ورثه من أراضٍ عبر آبائه وأجداده من جيل إلى جيل ومن سبط إلى سبط، ثم يضعه تحت أقدام الرسل. هل هذا معقول؟ هل يُعقَل أن الشخص المستحيل عليه مجرد أن يُحرِّك التخوم من مكانها، يقوم ببيع ميراثه ويطرحه في الأرض عند أُناسٍ غرباء عنه؟ هل تتخيلون منظر شخص يهودي كان له الكثير من الغِنَى، ثم فجأة يصبح فقيرًا، ويذهب ويستعطي ليأخذ من الرسل ما يحتاجه!! ما الذي حدث؟ لقد صار المسيح هو المصدر الوحيد لحياته وغناه.

ولم يكن الذي باع وتخلَّى وألقى تحت أقدام الرسل هو شخص يهودي واحد فقط، بل كثيرون فعلوا مثله، صاروا جميعًا فقراء، وهنا نشأت بينهم روابط حب جمعتهم ووحَّدتهم. شعورهم بوحدة الهدف ولَّد أُلفة ومحبة بعضهم لبعض. صار لهم فكر واحد واعتماد واحد على مصدر قوة واحد، فكانوا بالحق كنيسة الحب الحقيقي.

هنا نأتي إلى التطبيق على حياتنا. والتطبيق ليس صعبًا. كلنا دعانا الرب، كلنا سمعنا صوته ينادينا، هو التقانا في مكانٍ مختلف كل واحد عن الآخر، دعانا إليه، قال لكل واحد فينا: تعالَ إليَّ، أنا محتاج لك، عندي لك مشروع عظيم جدًّا!! وأنت تسأله: ما هو يا سيدي؟ فيُجيبك: أن تعيش معي في سلام وحب مدى الأيام، ولكن سأضع نيري عليك، ستشترك معي في آلامي، ولكني أعدك أن تبقى شريكًا في أمجادي، وفي هذا الدهر سترى بعينيك ما لا يُرى، وتأخذ عربون الحياة الأبدية التي سمِعتَ عنها في الإنجيل. وهنا تسأله أنت: هل ممكن يا سيدي أن تُعطيني شيئًا ألمسه وأحسه من الآن! والرب يستجيب لك بطريقةٍ عجيبة. فعندما يعود الشخص إلى مخدعه ويقف يرفع يديه ليُصلِّي، يجد أن قلبه التهب، وحرارة روحية تملأه، ويحس أنه يكاد يلمس الرب فعلًا، فيشعر أن الكلام الذي قاله له الرب جد حقيقي. وهنا يقول للرب: هل صحيح إني سأتبعك وأبيع العالم وكل ما فيه وأذهب وراءك؟ وفعلًا تتحقق الدعوة، ويصبح يسوع من هذه اللحظة الفارقة هو كل شيء في حياته.

ولكن من الضروري جدًا المحافظة على طاقة الإيمان الجبارة التي دفعت الشخص لكي يسير في طريق الرب، عليه أن يتذكَّرها ويضعها نُصب عينيه دائمًا. فيسوع الذي

وجدناه في تلك اللحظة الفارقة من حياتنا هو هو نفسه الذي سيُصاحبنا ويُكمِّل بنا بقية طريق حياتنا.

رسالة الرب لنا الليلة: لماذا نحن لسنا حارين بالروح؟ وبالطبع نحن لسنا باردين، ولكن، كما يقول الشاهد الأمين الصادق: «لأنك فاتر». الوضع صعب وخطير جدًا. فإذا كان الشخص باردًا يستطيع المسيح أن يؤدِّبه، وإذا كان حارًا فإنه يُقبِّله ويحتضنه، أما أن يكون فاترًا فالنتيجة أن يتقيَّأه ...!!

ولكن ما السبب في هذا الفتور المُخزي الذي نحن فيه؟ الإجابة هي في كلمة واحدة قالها المسيح للكنيسة الأخيرة، كنيسة هذا الزمان الأخير: «لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ». إنه الشعور بالاكتفاء وعدم الاحتياج، فما أن تعطي تعليمًا أو إرشادًا لأحد وخصوصًا من المحسوبين على الكنيسة أو رجال الدين إلا ويقول لك: [أنا أعلمه، هذا ليس بجديدٍ عليَّ، أنا لستُ أقل مِمَن قاله، هذا الكلام لا يخصُّني، إنه موُّجهٌ للآخر الذي بجانبي...]. هذا الشخص صعب عليه جدًا أن يتقدم أو ينمو، فهو لا يشعر أن الكلام ممكن أن يكون له هو شخصيًا.

للأسف نحن كلنا نحس أننا أغنياء. نحن نقيس أنفسنا على أنفسنا أو على الآخرين، ونعمل بيننا وبينهم مقارنة، ثم نخرج بنتيجة أننا الأفضل. الذي يفعل هذا يضلُّ كثيرًا. قياسنا الوحيد هو الرب يسوع الذي يجب أن نقيس أنفسنا عليه.

إذا داخَلك إحساس الغِنَى فتكون النتيجة أن الفتور يصيبك، وتبدأ عورتك تظهر، وحياتك تضعف، وعيناك تنعمي، وتصير في حالة رديِّة جدًّا.

ليت الرب يفتح قلوبنا اليوم، ونشعر بأننا نحن أنفسنا المقصودون بهذا الكلام، وليس غيرنا، ثم نستسلم لتأنيب وتوجيه الروح القدس في حياتنا.

ولكن ما هو غنانا؟ إنه شيء واحد وحيد: أن يكون لنا فكر المسيح، يكون لنا علاقة وعِشرة قوية بالله. هذا هو غنانا الحقيقي. هذه العلاقة بيننا وبينه هي كالذهب الذي ربما يشوبه بعض الزغل أو الشوائب. ولكن إن كانت علاقتنا بالله حارة وقوية وصحيحة، فهي تستطيع أن تأكل زغل المعاملات والعلاقات البشرية الهشة وتُبقي على الذهب وحده. وهنا أيضًا تنصلح العلاقات بين الإنسان وأخيه: «إِذَا أَرْضَتِ الرَّبَّ طُرُقُ إِنْسَانٍ، جَعَلَ

أَعْدَاءَهُ أَيْضًا يُسَالِمُونَهُ» (أم ١٦: ٧). فإن ارتفعت حرارتك الروحية واشتعل قلبك بحب الله، ومشيت وسط إخوتك، لأشعلتهم أنت نارًا من حبك، وصاروا لك عبيد حبٍّ.

إذا كنَّا نعاني من مشاكل من جهة علاقات بشرية مضطربة بيننا وبين إخوتنا، هذا بسبب أن حياتنا الداخلية فاترة ضعيفة، نشعر أننا أغنياء. الداخل، يا إخوتي، هو مشكلتنا الأولى، فإذا انصلح، يصير الخارج ملكوتًا. لو استطعنا أن نُصْلِح علاقتنا الداخلية التي تربطنا بالرب يسوع، لو شعرنا بضعفنا وفتورنا، وأننا لسنا أغنياء بل فقراء، ستكون النتيجة أننا سنلتقي بالناس، ونلاحظ تغييرًا كبيرًا، ولكن التغيير ليس في الآخرين لكن فينا نحن. ستجد الناس تتسابق في تكوين علاقة معك، تتسابق في محبتك.

تعالوا، يا إخوتي، يا من تقولون إنكم أغنياء، تعالوا نتقيَّأ أنفسنا قبل أن يتقيَّأنا المسيح. نتقيأ طباعنا الردية التي أخذت صورة التقوى والعلم، وصارت مُعجبة بذاتها، وصارت تشعر أنها أفضل من غيرها، وتظن أنها تستطيع أن تُخلِّص كثيرين، وهي البائسة والشقية والعريانة، وعن النور معمية. تعالوا نلفُظ أنفسنا حتى يقبلنا المسيح. تعالوا، تعالوا الليلة نتعاهد سرًا بلا حديث وبلا كلام. نقف أمام المصلوب ونقول له: أنت تعرَّيتَ لكي لا نعيش نحن فيما بعد عُراة، أنت تعريت يا ربي، لكي تنزع عنا كل ثوبٍ كاذب.

مهما أعطاك الله من عطايا أو مواهب أو مناصب، فإياك أن تتكبر أو تحس في نفسك أنك شيء. لا تصدق وقتها أنك قديس أو أنك اغتنيتَ أو أنك أفضل من غيرك. العلامة الصِحية الوحيدة التي تُصدِّقها والتي تُثبت أنك تسير في الطريق الصحيح، هي عندما تتعرض لإهانة أو ظلم، وعندها لا تثور أو تغضب، بل تقول: [هل أنا أستحق يا ربي أن تُشركني في صليبك؟ أشكرك لأنك تحبني وتؤدِّبني]. فهو يفهم أن الأبناء المحبوبين هم فقط الذين يهتم بهم أبوهم ويؤدِّبهم.

الشخص الذي يحس بفقره لا يبحث إلا عن النصيب الأصغر والمُتَّكأ الأخير، وعندما تمدحه أو تُكرِّمه على أمرٍ أتاه، يخجل جدًا، ويتذكَّر خطاياه ويهرب. يقول في نفسه: [مَن أنا؟ هل أنا صرتُ مثل أنطونيوس؟ أو يقول لمِن يمدحونه: لعلكم تقصدون شخصًا آخر!]. لعلكم تتذكرون قصة أنبا مقار وكيف هرب عندما أرادوا أن يعتذروا له عن إهانتهم وظلمهم له.

اليوم الذي تتعرف فيه على الرب معرفة صادقة، لا يمكن أبدًا أنك تحس في أعماقك أنك أفضل وأكثر معرفة من غيرك؛ بل بالعكس تحس أنك أعجز وأقل الكل.

إذا ازددتَ قُربًا للمسيح ازددت فقرًا، فقرًا حقيقيًا، وليس كاذبًا. سوف لا تقبل إطلاقًا أن تتزيَّن بزيٍّ العابرين في العالم، أو بثوب يتباهى بلبسه أولاد العالم، أقصد ثوب الكرامة والمجد، ثوب العلم والشهادات، سوف تدوسه تحت رجليك. تعرفون قصة زكريا الراهب، الصبي الجميل، حين سأله أنبا موسى الأسود: مَن هو الراهب؟ فما كان منه إلا أن خلع الطاقية التي كان يلبسها على رأسه، ورماها في الطين وداسها برجليه، ثم وضعها على رأسه، وقال: إن لم يفعل هكذا، لا يكون راهبًا!

غنانا الحقيقي هو قربنا من المصلوب، هذا الذي تعرَّى، وهو القادر أن يجعلنا نتعرَّى تعرية إرادية من **الأطياب** النتنة لهذا العالم الكاذب. يا إخوتي، أخطر شيء هو أن ننجو من بحر هذا العالم الواسع ثم نغرق في الميناء! هذا ما قاله أحد القديسين عندما رأى ربابنة مهرة عبروا المحيط بنجاح، وما إن وصلوا لمياه الميناء الضحلة حتى غرقوا.

هذا ما أخافه عليكم، يا إخوتي، بعد أن تكونوا قد قطعتم أشواطًا في حياتكم الروحية، واقتربتم كثيرًا من الوصول، إذا بكم تغرقون في الطين. هذا هو داء هذا الجيل، داء كنيسة آخر الزمان. للأسف أنتم اعتقدتم في أنفسكم أنكم الأفضل مِمن حولكم، تعظَّمتم على غيركم. هذا لا يجب أن يكون أبدًا. كل مَن يعبد الله لا يتعالى أو يتكبر أبدًا. الله لا يُشمخ عليه.

فإذا كنتَ مسيحيًا حقيقيًا ستتعرض للظلم والطرد. ينبغي أن تقبل هذا. كُن مثل سيدك الذي لم يكن له حقوق على الأرض، كان يُتمِّم واجباته ولم يُطالب بحقوق يستحقها. أتذكَّر أنني كتبتُ على باب قلايتي من أول يوم دخلت فيه الدير بالخط الكبير: "الراهب عليه واجبات وليس له حقوق"، وعشتُ بهذا المبدأ كل أيام حياتي.

آه! يا ويلك لو شعرتَ بعدم الاحتياج لشيء أو الاكتفاء بنفسك دون الرب. لابد أن تكون في حالة من العوز والفقر الحقيقي. صدقوني، يا إخوتي، أنت لن تنال قطرة تعزية أو نعمة في حياتك إن لم تشعر بالجوع والعطش المتواصل للرب. لذلك وَضَعَ المسيح الشرط الأعظم للارتواء: العطش: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ» (يو ٧: ٣٧).

ليتنا نكون مثل ذلك الشخص الذي يشعر أنه فقير ومسكين، ويجلس ساهرًا أمام إنجيله يقرأ ويهذُّ في الكلام، ثم تجده يبكي، ونسأله: ما الذي يُبكيك؟ يقول: الكلام حلو ولذيذ، وأنا لا أستطيع أن أستوعبه كله، ثم تجده يسأل: [هل من طريقة يأكل بها الشخص الكلام ليدخل داخله؟!].

أه! مَنْ مِنَّا مثل ذلك الشخص الذي يقرأ في الإنجيل قليلًا، ثم يقوم يُصلِّي بمزاميره، وتجد عقله مشغولًا بآية قرأها ويتأمل فيها. وإذا به يجد أن الوقت قد تأخر، ولابد له أن ينام ليقوم مُبكِّرًا لحضور الكنيسة. هذا الشخص مشغول بإلهه، شاعر أنه فقيرٌ محتاج فعلًا للرب.

أما الغني المُستغني، فوقته مشغول بالذي مرَّ والذي سيأتي. يفكر ماذا سيفعل، وما هي الطريق الأمثل للحصول على الشيء الفلاني. عقله مُشتَّتٌ، والشيطان يضع عصابة على عينيه لكي لا يرى. وطبعًا لا إنجيل مفتوح، ولا صلاة قلبية، ولا تأمل في آية، وتضيع منه الأيام بل الحياة. هذا باختصار لأنه لا يشعر أنه فقيرٌ أو أنه محتاجٌ للرب.

ولكن احذروا، يا إخوتي، من الإدانة، أن تضع نفسك في مستوى أعلى، تشعر أنك أفضل من أخيك. إذا أتاك هذا الفكر، قُلْ له: [ما لي أنا وللآخرين؟ أنا بائس وشقي وفقير وعريان، كيف لي أن أحكم على غيري وأدينه؟ عليَّ أن أهتم بمرضي وخطاياي، وأبحث عن خلاص نفسي أولًا. تكفيني الحروب الواقعة عليَّ]. قُمْ صلِّ وتوسل، اصرخ للرب لكي يُعطيك فقرًا أكثر. ونعمة أكثر.

صعبٌ جدًا أن تنقذ إنسانًا شاعرًا بنفسه أنه غنيٌّ وقد استكفى. عندما تحاول أن تنصحه سيعتقد أنك في مستوى أقل من مستواه، يحس أنه أعلى منك. لن تستطيع أن توصِّل له رسالة، سيهز لك رأسه ولا يأخذ شيئًا. هذا الإنسان فقير من الله، لا تجد فيه شيئًا يُنبئ بأن الروح يعمل فيه. وقليلًا قليلًا تفارقه النعمة، ويتعرَّى من ثوب النعمة، ويُرى عُريه قدام الناس كلها.

مَن هو الأعمى؟ هو الذي لا يرى فضائل الناس، بل يرى الفضائل في نفسه فقط. أما الإنسان ذو البصيرة الروحية فهو الذي يرى أخاه أفضل منه، يرى أقل فضيلة في أخيه ويمتدحه عليها.

«أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ». الذهب رمز للإيمان بالله. وإذا كان يلزم للذهب أن يصفُّونه بالنار، هكذا الإيمان يُختبر بالتجارب. فالغِنَى الحقيقي هو إيمان مُزكًّى بالتجربة.

الإنسان الغني هو شخص له مصدر قوة يعتمد عليها، ومن أين تكون تلك القوة، إلا الله نفسه. إيماننا بالرب يسوع، يُعطينا قوة نستطيع بها أن ننقلها للآخرين، بل ونُغنيهم.

ليتنا نُصلِّي أن نبقى فقراء من أجل المسيح، لا نطلب ولا نلفظ أبدًا «إني غني وقد استغنيتُ» نموت ولا نقولها.

اعلموا أن الرب يحبنا، فنحن أولاده، ولهذا السبب هو يرسل لنا عصا تأديباته وتوبيخاته. وثق أنه لا يؤدِّب إلا مَن يُحبه: «لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ» (عب ١٢: ٦). بدون تأديب الرب لنا سنظل نشعر بالغِنى وأنه لا حاجة لنا إلى شيء. لذلك مَن يقبل التأديب يصير ابن حبٍّ أو ابن محبة.

السؤال هنا: كيف نزيد حرارتنا الروحية؟ كيف نزداد غيرةً ونشاطًا ونمتلئ أكثر من الروح القدس؟

(يتبع)

*** (بقية المقال المنشور صفحة ٣٣) ******************************

إنَّها تعمل كأعضاء لجسد واحد. كَمْ هو مثال رائع لنا نحن الأعضاء في جسد المسيح الذي يحبُّنا كثيرًا حتَّى إنَّه قال: **«أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ»** (يو١٧: ٢٤).

صلاة

أيُّها المسيح، ها عقلي، فكِّر من خلاله.
أيُّها المسيح، ها وجهي، أنِر من خلاله.
أيُّها المسيح، ها عيناي، انظر إلى النَّاس من خلالهما.
أيُّها المسيح، ها قلبي، أحبِب النَّاس به.